العطش والتعطش في الأغاني العراقية

بقلم نازك الملائكة

لو سألنا سائل(*) ان نضع مخططا فكريا عاما للاغاني العراقية لانتهينا الى القول بانها في حقيقتها تعبير بسيط عن العلاقة الفطرية بين الانسان والارض . ذلك اننا ، مع الفرد العراقي الذي يبدع هذه الاغاني ، بازاء مخلوق ما زال يحتفظ في نفسه بكثير من بدائية الانسان الاول الذي يقف من الطبيعة موقف المتأثر فيتجاوب معها ، وينفعل لاحداثها ، وتستجيب حواسه اليقظة المرهفة لتقلباتها الدائمة. ويكون التعبير الغنائي اول حصيلة لذلك التجاوب والاهتزاز ، فيندفع العراقي الى الانشاد اندفاعة انسان الطبيعة القديم الذي لا يغني حين يغني بدافع التسلية واللهو والطرب ، وانما تهزه حاجة ملحة تجعل الاغنية ضرورة حياة ينفق بها الانسان عواطفه الدافقة ويتخلص بها من طاقة جائشة لا بد ان تنفق . وانما يصدر العراقي، في كل نغمة يغنيها ، وفي كل كلمة موزونة ينطق بها ، عن احساس وثيق بحاجة الى التعبير المنغوم تقض مضجعه وتدفعه دفعا الى ان يرفع صوته بالغناء . وتلك الخاصية تجعل لاغانينا العراقية ملامح خاصة بها تميزها الى حد ما عن سواها من اغاني الوطن العربي الكبير .

ان الفرد العراقي عاطفي ، متأجج المشاعر وتلك ابسط خصائصه واوضحها . وقد الف ان يقيم صلاته بالاشياء والاحداث على اساس تلك العواطف فليس مستغربا ان تكون الصلة بينه وبين ارضه صلة تأثر وانفعال زاخر مستمر . انه يعيش بأرضه ولها ويحكم احاسيسه نحوها في كل جهات حياته . فمن النهر الذي يجري في الارض او لا يجري يشتق العراقي اغانيه وقصائده . اذا كانت الارض مترفة ندية بالخضرة لان النهر الكريم يمر بها ، جاءت الاغاني تقطر بالماء وتموج بالخصوبة والاخضرار . واما اذا كان المحل هو الغالب والماء بعيد لا ينال ، فان الاغاني تأتي حافلة بالعطش المحرق واليبوسة والجفاف ، وتصور اناسا عطاشا ، وخدودا احرقتها شمس الظهيرة، وحصادا جافا لا طراوة فيه ولا ندى . والحق ان الالتفات الدائم الى الماء يكاد يصبح خاصية مميزة للاغاني الشعبية في العراق،بحيث لا يمكن لنا ان نلقي نظرة تحليلية فاحصة على هذه الاغاني دون ان نشخص هذه الظواهر ونقف عندها متأملين ما يكمن وراءها من دلالة وما تلقيه من ضوء على نفسية العراقي.

وبمقدار ما يمتلك العراقي عاطفية غريزية واندفاعا فطريا نحو الارض ، يمتلك ايضا ذلك الصفاء الشفاف الذي تتميز به نظرة الرجل البدائي . انه يتطلع الى الوجود في خشوع مشحون بالعاطفة والحرارة فتكون نتيجة ذلك ان تتصف نظرته بالادراك الحق الذي يتصف به العقل البدائي، ان الاغنية العاطفية التي تنطلق من القلب في صدق كامل هي دائما الاغنية الى تعبر بعمق عن الحقائق الانسانية الكبرى والعفوية هي حقا مفتاح الحقيقة . ولذلك نلاحظ ان العراقي الذي يغني بكل عاطفته ياتي دون ان يدري كيف، ودون ان يتعمد ، بفلسفة عميقة مدركة ذات ابعاد شاسعة. واذا اردنا ان نذكر مثالا بسيطا لذلك فليس علينا الا ان نستذكر بعض الاغاني الدارجة في العراق من مثل الاغنية البسيطة التي كنا نسمعها في طفولتنا كثيرا :

ما تروي العطشان يا شط عسنك (١)

ان في هذا الشطر من مطلع الاغنية بعض الحقائق الكبيرة تكمن مبعثرة وراء المعنى المتحرق الذي صاغه عاشق ريفي مجهول لا يعرف له اسم . ان هذا الرجل العراقي الذي ابدع الاغنية يحب فتاة تسكن على الضفة الثانية من النهر ويشعر ، من ثم ، ان الماء هو الذي يفصل بينه وبينها فلا يجد متنفسا يعبر به عن حبه وضيقه الا بان يندفع في سذاجة ويدعو على النهر بألا يروي ظمآن . ولعل هذا الدعاء يبدو مضحكا لنا، خاصة لمن انغمس منا في شكليات المدنية حتى ابتعد ابتعادا وثيقا عن عفوية الانسانية الحقة. لعل الانسان المتحضر المعاصر الذي فارق الحياة البدائية وفقد الصلة الوثقى بالطبيعة ، ان يتساءل عن الاساس الذي تقدم عليه دعوة هذا العاشق الريفي ، فماذا يضير النهر الا يرتوي الذين يشربون من مائه ؟ والجواب في الظاهر ان ذلك لا يضير النهر ، فيكفي اي نهر ان يجري ويتفرع ويترامى عبر المسافات ، لكي يحقق غايته ، سواء بعد ذلك اروى العطاش ام ابقاهم على عطشهم . غير ان منطق هذا الحب العراقي الساذج اعمق واكثر ارتباطا بالحياة . انه يشعر — دون ان يدري — بان المثل الاعلى لكل ما على الارض ان يكون معطاء وان يبذل ويبذل ويروي العطاش . وفي نظر هذا العاشق لا تكون سعادة النهر الا بأن يسقي ويعطي كل ما في وسعه ان يعطيه للشاربين.

(*) هذا البحث هو الحلقة الثانية من سلسلة دراسات اكتبها حول المضمون الاجتماعي للاغاني العراقية . وقد كانت الحلقة الاولى بعنوان (شخصية الاخرين في الاغاني العراقية) وهو مقال نشرته مجلة «الاداب» سنة ١٩٥٧

(١) « الشط » في اللهجة العراقية الدارجة هو النهر نفسه لا شاطئه.

ليس ذلك فقط . وانما تكتمل سعادة النهر في حالة واحدة وحسب : اذا سقى العطشان ورواه . فكم من شارب لا يروى ظمأه شيء، وكم من ماء يسقي الشفاه ولا يتركها الا متعطشة للمزيد بهذا النهر ـ الذي هو بصورة واضحة نوع من العذول يشاكس العاشق ـ ان يصبح ماؤه مثيرا للعطش فلا يرتوي من يشرب منه قط . ولذلك نرى صاحبنا المحب العراقي البسيط . يحاول ان ينتقم من عذوله النهر الذي يفرق بينه وبين الحبيبة العزيزة على الضفة الثانية ، فلا يزيد على ان يدعو عليه على الا يحقق غايته من وجوده ، ومن ثم لا يتاح له ان يروي عطشان .

وحين نذهب ابعد في التحليل ننتهي الى الخلفية الاعمق للنفسية العراقية وسوف نجد ان احدى الخواص الظاهرة لهذه النفسية انها تقدس الحياة وترى غايتها العليا هي البذل والانفاق السخي. ان سعادة العراقي تشبه سعادة هذا النهر الذي لا يريد ان يسقي الظامئين وحسب ، وانما يهمه ايضا ان يرويهم حين يسقيهم . واما عندما يلعن العراقي نهره ويدعو عليه بان يعقم ماؤه فلا يروي الشاربين ، فان المعنى ان الامور لم تعد تجري على النحو الذي يرضي ويسعد . ان النهر الذي هو دائما صديق حنون كريم ندي اليد يمنح البركة والحياة ، هذا النهر نفسه قد بات عدوا لئيما مشاكسا ، دأبه ان يحول ولا يحقق ، ويفصل بدلا من ان يربط ويصل .

ولعلنا نندهش حين نرى العراقي يصل في بدائيته تفكيره الى حد معاداة شيء لا ارادة له كالنهر ، ففي نظر العقل تبقى الطبيعة سلبية لا تقصد ولا تريد وانما تجري دفق نظام صارم مفروض عليها . غير اننا سرعان ما نلاحظ ان من خصائص الذهنية البدائية انها تفيض من حياتها على الاشياء الجامدة حولها باستمرار . وفي الاغاني العراقية عشرات الامثلة على ذلك نشير منها الى تلك الصورة اللطيفة التي وردت في بيتين لفتاة ريفية من الجنوب تمنت لو تكون فنجان قهوة في مقهى حتى اذا تناول الحبيب العزيز هذا الفنجان انفجرت بالبكاء بين يديه . فالفنجان في هذه الصورة ينتحب وتتحدر له دموع حارة :

كون انقلب فنجان بيد القهوجي(٢)
واوصل لحلق هواي وانتحب وابجي(٣)

ومثل ذلك ان يتصور المحب الريفي انه يسمع النخله تئن وتشكو من ان الحبيبة السمراء قد رمتها بحجر فاصابها الذبول ولم يبق منها الا السعف والكرب ، كما نلاحظ من الصورة التالية :

نخل (الرمادي) يقول طرتني سمره
سعف وكرب ظليت ما بي ثمره

ومن الامثلة الحية المشهورة في الادب الشعبي العراقي بيتان تتصور فيهما عاشقة ريفية انها استحالت نجمة من نجوم الصباح التي تعبر في السماء ، وتسقطها المصادفة المحضة على غطاء الحبيب الغافي ، فتتدثر معه بحجة البرد : ـ

نجمة صبح يا هواي واسقط على غطاك
وبحجة البردان واتلفلف ويـاك

ومن ذلك ايضا الصور الكثيرة التي ترد عن القمر وهو يبدو احيانا مخلوقا عابثا يلعب بتضليل المحبين المؤرقين وخلق الاوهام لهم :

أرد اجمع الميزان ويا الثريا
ثاري القمر حيال يضحك علي(٤)

ان استقصاء هذا التشخيص الذي يضفيه العشاق الريفيون في العراق على الاشياء الجامدة امر يضيق عنه نطاق بحثنا الموجز هذا وبحسبنا ان نستبقي في اذهاننا ما يكمن وراء الامثلة الجزئية ، فهذا العراقي حين تتفجر عواطفه يملأ كل ما حوله بالحياة ، فيرى الفناجين تبكي وتتحدر دموعها ، والنخيل تشكو آثار النظرات التي ترمقها بها العيون السود ، والنجوم تعشق وتشتاق وتتظاهر بالبرد لتتدثر مع حبيب غاف في غبش الفجر ، والقمر ينصب شراكا ويلعب العابا يشاكس بها المحبين في ليالي الريف الجميلة وهكذا يتحول الجمود نفسه الى حياة مشتاقة متفجرة تبقى نابضة ولا تهدأ لحظة .

*

(٢) كل قاف في العامية العراقية تلفظ كما تلفظ الـ G الانكليزية

(٣) «ابجي» معناها ابكي بلهجة العراق

(٤) « حيال » باللهجة العراقية تعني « محتال » بلا نية سيئة .

صدر اليوم

الكتاب الثالث من المجموعة النسائية

المجموعة التي قدمت لك

ق.ل

١٥٠ **افضل سنوات المرأة**

٢٠٠ **لنتحدث عن الاطفال**

تقدم لك اليوم

١٥٠ **ابدئي حياة جديدة**

كتاب جدير بان تقراه كل سيدة

*

وصدر كذلك كتاب من السلسلة الجنسية المصورة

كتاب

١٢٥ **الحياة الجنسية في الزواج**

منشورات مكتبة المعارف في بيروت

ص ب ١٧٦١

ولكن صلة العراقي بالماء ، بمختلف مظاهره وارتباطاته ، هي اقوى صلة . الماء يكاد يكون النبع الاكبر الذي يفجر الاغاني ويبعث الالحان والمعاني والعواطف حتى توشك اغاني الريف العراقي ان تكون كلها نتيجة للعطش والارتواء ومختلف مظاهرهما . ونحن نجد هذه الاغاني تعكس ، حتى بلغتها وتشبيهاتها ، صورة البقعة التي كتبت فيها . اما في تلك السهول الفسيحة العطشى التي لا يصلها الماء ، فان الاغاني تسلك مسلك اشجار النخيل التي تصعد في الهواء على ظمأ وحرقة بينما تجوب جذورها التراب بحثا عن قطره ماء لا تجدها الا اذا غاصت في اعماق الارض . ومع هذا الصبر الممتثل الكريم الذي يقابل به نخيلنا حرقة العطش ترتفع اغانينا عطشة هي الاخرى ، متحرقة تحرق التربة المجدبة التي انبتتها ، يكثر فيها ذكر الانهار والماء والمحل والعطش والمطر . هنا في اعماق الريف العطشان يولد الحزن والغناء وينشآن توأمين لا ينفصلان . ولعل العراقي لا يغني ولا يبدع الا حين يحزن ويغص بالدموع . اذ ذاك يجلس متكئا الى جذع نخلة حانية ويرفع عقيرته بالغناء فتتكسر الاهات وتتجاوب بين سعف النخيل .

والحق ان النخيل العطشان يصلح رمزا عاما للنفسية العراقية حين تخلق الشعر والغناء . واقول « النفسية العراقية » واقصد بها الفطرة العراقية الحقة التي لم يلوثها تصنع المدنية ... ففي المدن ، يكتب النظامون المحترفون اغاني ركيكة مبتذلة لا يشتقونها من اعماق الروح المحلية الاصيلة وانما يطلونها بكل ما هو زائف مجلوب فتجيء منظوماتهم حافلة بالبذاءة والبرودة والتصنع . وانما اقصد الاغاني الجميلة الحارة التي ينتجها الريف ويعبر بها عن عواطفه تعبيرا عفويا ، في غفلة كاملة عن الشهرة والمال والاساليب . هناك ينظمون الاغاني مدفوعين بمثل دوافع النخلة المتعطشة التي ترسل جذورها في التربة بحثا عن الماء والغذاء . وكما انه لا بد للنخلة من ان تسعى الى الارتواء والشبع ، فكذلك يشعر العراقي انه لا بد له من ان يسعى الى التعبير عن نفسه بالشعر والغناء ، ومن ثم تجيء الاغاني نابضة بالاصالة والانسانية والجمال والحرارة ، وتشير الى نقاوة الروح العراقية ذات العاطفة الفطرية المكتنزة والخصب الشعوري الذي لا ينضب .

واذا كان الماء ظاهرة غالبة على اغاني العراق ، فان العطش هو السمة الغالبة على هذه الاغاني . ولسنا نعني بالعطش حرفية المعنى . فكم في العراق من حياة غزيرة جارفة تتبدد ليل نهار ، وما اكثر الاغاني التي تتحدث عن دجلة والفرات وعن الشواطيء والامواج والاسماك ومراسي الزوارق والاشرعة البيض وغير ذلك مما هو مفعم بالماء الدافق الغزير . وانما نحن ، مع ذلك ، بازاء اناس عطاش لا يرتوون ويبقون يتحرقون الى الماء الذي هو رمز للحياة كلها . ان النهر في العراق يكاد يصبح رمزا للعطش وذلك هو وحده سبب الالتفاتة في الشطرين :

ما تروي العطشان يا شط عسنك
محرمني شوف هواي يا كلها منك (٥)

ان ابسط دراسه لمضمونات الاغاني العراقية مما نسميه عادة بـ « غزل البنات »(٦) تنتهي بنا حتما الى ان نقابل « التعطش » وجها لوجه . ان دجلة والفرات مقترنان لدى العاشقات من بنات الريف بحبيب ضائع تاه في جرف ما على طول النهرين الكبيرين فنسمع الفتاة تصف بحثها عنه واصرارها على ان تعثر عليه مهما كلفها ذلك حتى لو قلبت النهرين قلبا :

أرد اقلب الشطين دجله والفرات
وانظر حبيبي اليوم من يا عقد فات

والشواطىء التي تحف بالنهر تذكر هذه الفتاة بطباع حبيب متقلب هوائي لا يكتم اسرار حبها وانما يبوح بها هنا وهناك ، وتلك طباع الرمال التي تتراكم على كل جرف حول الفرات ، فلا يأمن المرء ان يضع عليها قدما . وتنطلق المحبة في لحن عتاب رقيق لهذا الحبيب الثرثار :

ـ التتمة على الصفحة ٧٠ ـ

(٥) «يا كلها منك» معناها الحرفي : «يا من هو السبب في المسألة كلها»

(٦) «غزل البنات» الاسم التقليدي للشعر العاطفي الذي تقوله بنات الريف ارتجالا وله وزن خاص منزوع من البحر البسيط . وقد اعتمدنا عليه في الامثلة التي اوردناها في هذا المقال . على ان الوزن لم يعد مقصورا على البنات وان كان كذلك في الاصل .

شركة مصر للطيران

الشركة العربية المتحدة للطيران

من أول كانون الثاني الحالي الى نهاية آذار ١٩٦٠

بيروت ـ القاهرة ـ بيروت

بالأسعار المخفضة

الدرجة السياحية ١٧٨,٠٠ ليرة لبنانية

الدرجة الثانية ١٥٤,٥٠ ليرة لبنانية

بطائرات مكيفة سريعة ومجهزة بالرادار طراز

سوبر فايكاونت

مكاتب الشركة : بيروت ـ شارع رياض الصلح ـ بناية بنك مصر

تلفون ٣٠٣٨١ ـ ٤٥٧٥٤ ـ ٤٥٨٢٥

تتمة العطش والتعطش

ساسك رمل هيال من يا شريعه؟(٧)
عالرايح وعالجاي سرك تبيعه

اما السمك الذي يكثر في الانهار العراقية فان المحب العراقي يمنحه صفة المشاركة العاطفية ، ويجعله يبكي معه في ليالي الشوق التي يأرق فيها ولا يستطيع النوم :

وشلوان انام الليل وانت على بالي
حتى السمك بالماي يبكي على حالي

وما اكثر الاغاني التي يشبه فيها العاشق العراقي نفسه بنبتة صغيرة غريبة زرعت على شاطيء نهر ، بين الخوف والماء ، لتبقى منفردة مستوحشة ، ان هذا المعنى يتكرر في ابيات غير قليلة واجمل امثلته الشطر المشهور :

بين الجرف والماي حنطه زرعوني

وما اكثر ما يصور العاشق العراقي نفسه حيران مضيعا على الضفاف يتوسل الى ملاحي السفن الشراعية ان يعبروا به النهر الى الشاطيء المقابل حيث تسكن الحبيبة ، فتضيع صيحاته ولا يستجيب له الملاحون :

لاهل السفن باريت ما عبروني

وهكذا نجد الماء في هذه الاغاني مرتبطا بالضياع والتحرق والخيبة وكأن لعنة ذلك المحب قد حقت فلم يعد النهر يروي ظامئا . واما عندما نبتعد عن الماء قليلا وتأتي القفار الماحلة والبراري الظمأى فتبدأ الاغاني بالعطش الفعلي ولا تكتفي بالتعطش . هناك يصبح الماء حرقة كاويه على الشفاه وتشير ابيات الاغاني الى حب بلا امل كأن العاشق فيه يحاول ان يحرث ارضا من الصخور فكل جهوده ضائعة والامل مستحيل :

طرحي بصخر ذبوه مسحاتي كلت
بس دعوتي وياك كل دعوه فلت

والبيتان التاليان تتحدث بهما فتاة عاشقة عن الذبول الذي اصاب قلبها بعد ان حال العذول بينها وبين من تحب :

اصبحت روحي اليوم ذابل وردها
هدولي عبرة ماي والواشي سدها

هنا ما كاد الماء يتدفق ، ما كاد يلمس الورود الذابلة حتى جاء الواشي واغلق الطاقة الصغيرة المفتوحة . ودموع هذه الفتاة اغزر بكثير من الماء الذي تنعم به بقعة الارض التي يزرعها ابوها . ذلك ان الفلاح الذي يرى « لوحا » صغيرا من ارضه قد ارتوى بدفقة ماء مفاجئة جاد بها الحظ يقف مبهورا من النشوة والسعادة وهو لا يصدق ان ماءه قد سقى كل تلك « الارض » . وهنا تسخر منه الفتاة العاشقة ، فان دموعها نفسها اكثر من هذا الماء. وفي خيالها يمكن ان تسيل هذه الدموع وتصعد حتى تصل الى مستوى الارض في « النجف » مشهد الامام علي وهي معروفة بانها تقع على تل عال . والصياغة في البيتين من اجمل ما يمكن في ادب الاغاني :

متعجب بدنياك مايك سقى لوح
دمعي من اهده اليوم للمشهد يروح

ان الماء يذكر فتيات الريف بدموعهن دائما ومن اجمل نماذج هذا المعنى هذا الشطر المشهور :

يا الشايلات شراع بدموعي فوتن
كل الوجاعه تطيب بس آنه اموتن

والعطش ، العطش الحقيقي الذي تشعر به فتاة تعيش في ريف قاحل ، هذا العطش يرتوي من مرة واحدة ترى فيها الحبيب . ولذلك نراها تقصد السوق ، ولو دون ان يكون لها عمل فيه ، وانما لمقصد ان تمر بحبيبها وتراه، ورؤيته تروي ظمأها حتى لو كانت لم تذق طعم الماء منذ سبع سنين :

مالي شغل بالسوق مريت اشوفك
عطشانه سبع سنين أروى من اشوفك

هذا هو الجو العام للاغاني العطشى التي تنبتها تربة العراق : محبون يزرعون الصخور وتضيع جهودهم سدى، وازهار تذوي وتصفر لان الواشي يسد عنها مجرى الماء، وفتيات بعطشن سبع سنين، واشجار ظامئة في قفار يابسة وقيظ وحر لافح تذبل خدود الحبيب العزيز تحت شمسه .

*

ان هذا التكرار لفكرة العطش في الاغاني العراقية يشير الى ظواهر اعمق في حياة العراقي ، ظواهر قد نستطيع ان نعلل بها للمشكلة الاجتماعية التي بدأ الجدل يثور حولها في السنوات الاخيرة : لماذا يبقى الغناء العراقي حزينا ملتاعا يمتزج بالاهات ويعصره العطش الروحي ؟ وقد لا تكون الاجابة عن هذا السؤال هينة . ولكننا لن نلتمس التعليلات في خارج حدود الاغاني العراقية . اننا نريد ان نأخذ الجواب من فم المحب العراقي المنفرد وهو يغني في اعماق الريف .

ولن نحتاج الى كثير من الجهد في التماس الجواب .. فلو التفتنا في قليل من التأمل الى اغانينا الشعبية لوجدنا في معانيها معنى عاما يتكرر على صور كثيرة ويفاجئنا مختبئا في الابيات والمقاطع هنا وهناك . ذلك هو معنى الاحساس بما لا يتحقق ، باستحالة الوصول الى الغاية ، وبعدم القدرة على تحقيق ما يبدو قريب المنال . وابسط تجسيد لهذا المعنى بيت شائع لعل اكثر العراقيين يحفظونه وهو يجري هكذا :

نمنا وشبعنا نوم بفيك يا نعناع

وهو بيت يشبه سائر اغاني الريف في انه يعبر بكلمات بسيطة قليلة عن معنى خصب مثقل بالاشارات . ولن يتاح لنا ان نفهم وجه المعنى في البيت الا اذا تذكرنا ان « النعناع » عشبة خضراء صغيرة لا يزيد ارتفاعها عن اصبعين . وهذا المحب يحدثنا انه التمس ظلا يتقي به حر الظهيرة اللافح فلم يجد الا النعناع .. ثم يقول لنا انه نام

---

(٧) معنى الشطر الاول ان « اساسك » ـ اي طبعك ـ يشبه الرمال التي لا تثبت ويسهل انهيارها وسرعان ما تجرفها امواج النهر . اما « الشريعة » بكسر الشين فهي الاسم المحلي لرسى الزوارق .

في ظل هذا النعناع .. وشع نوما . اية سخرية يمكن ان تكون اشد مرارة من هذه ؟ انه في الحق بيت يكاد يقطر بالدمع ، فياله نوما ، ويا لها ظلالا وريفة . ان هذا المحب الذي يتحسر ، لا يعبر عن حسرته بالتأوه والشكوى وانما بالسخرية الموجعة والاستهزاء . وهو يلمس قلوبنا احر لمس بهذه الاشارة الكئيبة الساخرة .

ويطل علينا الاحساس بما لا يتحقق في بيت اخر اقل شيوعا من البيت السابق وهذا نصه :

نتقابل اني وياك بابره نحفر بير

ان هذين المحبين قد يئسا من امكان اللقاء والاجتماع الى درجة تجعلهما يحسان بانهما ، في استماتتهما في تحقيق ذلك ، اشبه بمن يحاول ان يحفر بئرا بابرة لعله يصل الى الماء في باطن الارض . وذلك هو عين الاحساس بالمستحيل . فكيف يمكن ان تحفر بئر بابرة مهما كان الحفار صبورا مخلصا ؟ وهكذا ينتهي المحبان الى ان يسخرا من موقفهما المضني ويقنعا بالتشبيه . انهما يحتاجان ، لكي يرتويا من العطش ، الى ان يحفرا بئرا ، وليس معهما ما يحفران به الا ابرة . فما ابعد الارتواء.

ان هذه السخرية تتكرر كثيرا في الاغاني العراقية وكان المحب ، وهو يجسد نفسه محروما ، يسلي نفسه بالصور والتشبيهات والوان الاستهزاء . انه على الاقل يسعد ان يكون اول من يسخر من الواقع المرير الذي لا يستطيع تغييره وان حاول . ولعل السخرية ان تكون وجها من وجوه التنفيس العاطفي التي يبررها علم النفس وذلك لما تتضمنه من ادراك سابق للالم والحرمان . فان نتألم ونتقبل المنا ونضحك منه ، ذلك خير لنا من ان نتألم ونثور على المنا فنضيف اليه . ان التقبل نصف الحل وفيه عزاء على كل حال . لا بل انه يكاد يكون مرحلة من الانتصار .

كل هذا يعطينا مفتاحا هاما للروح التي تسيطر على الاغنية العراقية . آبار مغرية تلوح بالماء البارد العذب لو حفرت ، ولكننا لا نمتلك مساحي ولا فؤوسا نحفر بها لا شيء الا ابرة ضعيفة لا نفع فيها . وقوم يحرقهم قيظ الظهيرة فلا يجدون حاميا منها اكثر من ظلال النعناع . ان الآبار لا تحفر قط ، على حرارة رغبة العراقي العطشان في حفرها ، والنوم لا ينال ما دامت الظلال معدومة . ويبقى النعناع رمزا ساخرا الفرق بين الاحلام التي يتمناها العراقي والواقع التافه الذي يحققه ، كما تظل الابر رمزا مؤلما للحرمان من الفؤوس الحادة والمساحي التي تقلب التراب وتوصل الى المياه الباردة الصافية .

واما النتائج النفسية والعاطفية التي يحدثها هذا الشلل الروحي ، وذلك العطش الدائم الذي يحسه العراقي ، فان الاغنية العراقية لا تضيق عن تشخيصها تشخيصا غير واع . ونحن ولا شك واجدون مادة غزيرة للبحث لو تأملنا مختلف الاغاني من ناحيتها الاجتماعية والفكرية . ولعلنا ان نفرغ لذلك في حلقة تالية من هذا البحث !

بيروت **نازك الملائكة**

صدر حديثا

● صدر هذا الكتاب في اميركا منذ بضعة اشهر ليس غير . ولم يكد يوزع في الاسواق حتى تخاطفته الايدي ، واضطر الناشرون الى اعادة طبعه عدة مرات في فترة لا تتجاوز الخمسة اشهر .

● يعرض هذا الكتاب الفريد من نوعه لتصرفات الديبلوماسيين الاميركيين الغبية ، ويصور مدى خطورة الاخطاء التي وقعت وتقع فيها نظارة الخارجية الاميركية في سياستها تجاه الشعوب الحديثة الاستقلال .

● الاميركي البشع كتاب يسمو الى الذروة من ناحية القصة الفنية ، كما انه يشرح حقيقة اهداف الولايات المتحدة ويشرح نشاطاتها في كثير من بلدان جنوبي شرق اسيا باسلوب قصصي رائع ..

تأليف الناقدين الاميركيين : وليم ليدرر ويوجين بيرديك

اصدار : دار النشر المتحدة للتأليف والترجمة

ص.ب ٣٥١١ بيروت